المحاضرة الثانية

أيها السادة:

بينا في المحاضرة السالفة: أن ابن أبي ربيعة لم يكن صادق الحب، ولا متين الصبابة، وأنه كان هتاكًا للحرائر، فتاكًا بالأوانس. ساعده على ذلك شبابه الرائع، وجماله الفاتن، وثروة طائلة، كان من شأنها أن يتسع وقته لمداعبة الغيد، وملاعبة الحور.

وما كان بنا أن نطيل القول في ذلك، لولا ما نعرفه ونؤمن به من أنه لا يصح الحكم على شعر شاعر، أو نثر ناثر، إلا بعد الوقوف على دقات قلبه، وخطرات فؤاده. وقد علمنا مما سلف مبلغ ابن أبي ربيعة من الحب، ونصيبه من الصبابة، ولم يبق إلا أن نذكر ما يجب أن يكون لشعره من ميزة، ولأسلوبه من طابع، وفقًا لحالته النفسية، وميوله الشخصية، وأن نبين أثر تلونه في حبه، وتلاعبه في عشقه، وكيف كان ذلك داعيًا إلى أن يكون لشعره صفة تميزه عن غيره، وتفضله عما عداه.

غير أني لم أشأ أن أكشف الغطاء عن ذلك، وأميط اللثام عنه، إلا بعد أن أبين لكم كف فهمه الناس من قبلنا، وكيف كان حكمهم على شعره وتقديرهم لأدبه، فإني إذا فعلت ذلك فبينت بعدهم من الصواب، وانحرافهم عن الجادة، كنت جديرًا بأن أقول: إني عملت عملًا جديدًا، وأحدثت أثرًا جميلًا، وابتدعت بدعة حسنة، وسلكت في فهم ابن أبي ربيعة سبيلًا لم يسلكه الناس من قبل. نعم وكنت جديرًا بأن أخطِّئ من يقول: لا جديد تحت الشمس، وأن أكون نصيرًا للداعين إلى الجديد تتميمًا للقديم.

أعمل ذلك وأسعى إليه، وأنا أحترم أدب الأسلاف وفكرهم، مع اعتقادي أن كل شيء في الكون قابل للتهذيب، مفتقر إلى التكميل وأن السبعين صحيفة التي كتبها صاحب الأغاني عن ابن أبي ربيعة، لم تكن لتفهمنا حقيقته، وتعرفنا شخصه؛ إذ كانت موضوعة على غير نظام مبنيةً على غير أساس، وأن بنوَّتنا لأسلافنا وتبعيتنا لهم لا يحولان بيننا وبين تكميل ما لم يكملوه، وتهذيب ما لم يهذِّبوه، فإن للولد -وإن يكن سرَّ أبيه- قلبًا يفقه به، وعينًا يبصر بها، غير قلب أبيه وعينه، وليس للوالد مهما عظم أمره، وجلَّ قدره، أن يضطر ابنه إلى الحكم على الأشياء كما يحكم هو عليها. كما لا ينبغي للولد مهما أخلص في بنوته، وصدق في بره، أن يعقَّ الطبيعة فيما أهدته من نظر ومنحته من تدبير.

أيها السادة:

علمت أن ابن عباس سمع شعر ابن أبي ربيعة واستحسنه، وأن قائلًا قال له: اللهَ اللهَ يابن عباس، فإنَّا نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصي البلاد، نسألك عن الدين فتعرض، ويأتيك غُلامٌ من قريش فينشدك سفهًا فتسمعه؟ فقال: تالله ما سمعت سفهًا! فعلمت من ذلك أن ابن أبي ربيعة شاعرٌ مُستجاد الشعر، غير أن الشعراء كثير: فمن هو من بينهم؟ وما سبيله التي سلكها؟ وما هو الإبداع الذي عرف به؟

وبلغني أن الفرزدق سمع شيئًا من تشبيب ابن أبي ربيعة فقال: هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار، ووقع هذا عليه. فلم أفهم من هذا شيئًا، ولم أدر ما الذي يدل عليه اسم الإشارة في قوله: هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته.

وبلغني أيضًا أنه كان بالكوفة رجل من الفقهاء يجتمع الناس إليه فيتذاكرون العلم، وأنه ذكر يومًا شعر ابن أبي ربيعة في مجلسه فهجنه فقالوا له: بمن ترضى حكمًا

-ومرَّ بهم حمَّاد الراوية- فقال: قد رضيت هذا. فقالوا الحماد: ما تقول فيمن يزعم أن عمر بن أبي ربيعة لم يحسن شيئًا؟ فقال: أين هذا؟ اذهبوا بنا إليه. قالوا: نصنع به ماذا؟ فقال: ننزو على أمه لعلها تأتي بمن هو أمثل من عمر! فعلمت أن ابن أبي ربيعة شاعر اختلف الناس في تقديره، وأن بعض أعدائه اعتمدوا في النيل منه على الفحش والسباب.

وسمعت أيضًا أن العرب كانت تُقر لقريش بالتقدم عليها في كل شيء إلا الشعر؛ فإنها كانت لا تقر لها به، حتى كان عمر بن أبي ربيعة، فأقرت لها الشعراء بالشعر أيضًا ولم تنازعها شيئًا، فلم أفهم من هذا أيضًا إلا أنه شاعر مجيد، رفع من شأن قومه، وأكمل مجد آبائه.

وربما سمعت من طريق آخر أنه محب، فأقول ومن هو في المحبين، فإن الحب درجات؟ أو ناسبٌ متغزل، فأقول: ومن هو في المشببين، فإن للنسيب مذاهب؟

وكذلك ما زلت أسمع من أخبار ابن أبي ربيعة، وأقرأ من وصف الناس له، ما يبعدني عن فهمه، والحكم على شعره، حتى رأيت حديثًا مسهبًا لبعض العلماء المتقدمين، فيما ابتكره ابن أبي ربيعة من نادر المعاني وابتدعه من جديد الأغراض، حديث علمي، أراد به كاتبه -عفا الله عنه- أن يعلم الناس كيف يعتسفون في فهم الأدب، ويضلون في تقدير الشعراء: حديث طويل؛ بيد أنه كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء، حتى إذا جاءه لم يجده شيئًا: حديث خادع، ظن صاحب الأغاني أنه يكرم الأدب بذكره، ويمتع الأدباء بنقله، فلم يغفل منه كلمة، ولم يغادر منه حرفًا.

وقد رأيت أن أنقل لكم ذلك الحديث وأناقشه، حتى تعلموا أي ضرر يعود على قارئ تلك الكتب، إن لم يكن من أهل الحكم، وممن يميز الخبيث من الطيب، وحتى تعرفوا خطأ أولئك الذين يدرسون الأدب في بيوتهم، وبعد الفراغ من أعمالهم، ظنًّا

منهم أنه علم كمالي بسيط، يكفي في فهمه ودركه أن يكون للمرء مكتبة يرجع إليها ويروض الفكر فيها، ثم يبيحون لأنفسهم بعد ذلك أن يؤلفوا في الأدب، وأن ينقدوا الكتاب والشعراء!

نعم وحتى يعلم الناس جميعًا أن لا حياة للأدب، ولا بقاء للغة، إن لم ننظر في حياة غيرنا الأدبية، فنعرف الفرق بين أدبنا وأدبهم، وكيف نبهوا بعد خمولهم، ونشطوا بعد فتورهم. وما هي السبل التي أوصلتهم إلى ما وصلوا إليه، حتى نصل نحن كذلك، فإنا لا نريد أن نفخر بأجدادنا ونحن دونهم، ولا أن نعيش في ظلهم كما عاش آباؤنا في ظلهم؛ بل نريد أن تكون لنا ثروة أدبية، وتراث فكري، وأن نحيا في أنفسنا وبأنفسنا، حياة طيبة خالدة، يتغنى بها الأبناء والأحفاد.

نقل صاحب الأغاني -وهو يترجم ابن أبي ربيعة- عن الزبير بن بكار، عن عمه مصعب أنه قال:

«راق عمر بن أبي ربيعة الناس، وفاق نظراءه وبرعهم: بسهولة الشعر، وشدة الأسر[1]، وحسن الوصف، ودقة المعنى، وصواب المصدر، والقصد للحاجة، واستنطاق الربع، وإنطاق القلب، وحسن العزاء، ومخاطبة النساء، وعفة المقال، وقلة الانتقال، وإثبات الحجة، وترجيح الشك في موضع اليقين، وطلاوة الاعتذار، وفتح الغزل، ونهج العلل، وعطف المساءة على العذال، وأحسن التفجع، وبخل المنازل، واختصر الخبر، وصدق الصفاء. إن قدح أورى، وإن اعتذر أبرا، وإن تشكَّى أشجى. وأقدم عن خبرة، ولم يعتذر بغرة وأسر النوم، وغمَّ الطير، وأغذَّ السير، وحيَّر ماء الشباب، وسهَّل وقوَّل، وقاس الهوى فأربى، وعصى وأخْلى، وحالف بسمعه وطرفه وأبرم نعت الرسل، وحذَّر، وأعلن الحب وأسره، وبطن به وأظهره،

(١) الأسر -بسكون السين-: الخلق، قال تعالى: {نحن خلقناهم وشددنا أسرهم}. ويراد بشدة الأسر في وصف الشعر: إحكام النسج ومتانة التركيب.

وألحَّ وأسفَّ، وأنتج النوم، وجنى الحديث وضرب ظهره لبطنه، وأذل صعبه، وقنع بالرجاء من الوفاء، وأعلن قاتله، واستبكى عاذله، ونفض النوم، وأغلق رهن منى وأهدر قتلاه، وكان بعد هذا كله فصيحًا».

فهل رأيتم أغمض من هذا الكلام، وأقل وضوحًا منه؟ وهل يحسن أن يجيب المرء بمثل هذا إذا سئل عن شعر ابن أبي ربيعة؟

اللهم إنك تعلم أني لا أريد إلا الإصلاح ما استطعت، وأني لقيت عنتًا في فهم هذا الحديث المبهم الغامض، وأني أخشى أن يتورط فيه من يشق عليه فهمه، ويصعب عليه دركه، فإن المؤلف نفسه قد شعر بغموضه، وأحسن بإبهامه، فأطال في شرحه بالمثال.

ولنفرض أن هذا كلامٌ واضحٌ بيِّن، فمن ذا الذي يستطيع أن يحمل ذاكرته ستًّا وأربعين صفة لشاعر واحد؟ وما كانت تكون الطامة لو ألِفْنا هذا النحو من الفهم في تقدير كتَّابنا وشعرائنا وحكمائنا؟ أكانت تتسع اللغة لهذه الألقاب العديدة، والمصطلحات الكثيرة؟ أم كان يتسع وقتنا لدراسة الفنون على هذا النحو في اختلاف أنواعها، وتباين أشكالها؟ هيهات هيهات! ولشد ما تورط الكاتب في الخطأ، وأمعن في الضلال!

ولكن فلنترك تأنيبه جانبًا، ولنعد إلى النظر في تلك الكلمة، ولنفهمها فهمًا يخول لنا الحكم عليها؛ حكمًا صارمًا لا يرد.

أليس معنى كلامه قبل كل شيء أن ابن أبي ربيعة انفرد بتلك الصفات كلها، لم يشاركه فيها مشارك، ولم يزاحمه عليها مزاحم؟ وإلا فكيف بهر بها الناس، وفاق من أجلها النظراء؟ لا بد أن يكون غرضه ذلك، وإلا كان خاطئًا في حكمه، واهمًا في فهمه -نعم يجب أن لا يريد من تلك الصفات إلا أنها من خواص ابن أبي ربيعة، فإن

ذلك هو موضوع الحديث، وما سُلَّ من أجله القلم. وإذًا فلننظر أصدق أم كان من الكاذبين؟

وإني ألاحظ أولًا أيها السادة: أن ذلكم المؤلف لم يدرس شعر ابن أبي ربيعة دراسة تمكِّنه من الحكم الصحيح، وتجعله قادرًا على وضع الكلم في مواضعه، وأن يكون الشاهد وفقًا لما يزعمه، وطبقًا لما يدعيه: فقد رأيناه يمثل لدقة معناه وصواب مصدره بقوله:

عوجا نُحيِّ الطلل المُحولا ... والربعَ من أسماء والمنزلا[1]

بجانب البوباة لم يعدهُ ... تقادم العهد بأن يؤهلا[2]

وليس هذا بالكلام الرائع ذي المعنى الدقيق، وإنما هو شعر كان من أمره في التعقيد أن اختلف الناس في فهمه وتأويله: فقال إسحاق بن إبراهيم: يعني أنه لم يؤهل فيعدوه تقادم العهد. وهو فهم سقيم، فإن المنزل الذي لم يؤهل حتى لا يخشى عليه تقادم العهد، ليس أهلًا للتحية، ولا لتذراف الدموع. وقال بعض المدنيين: يحيِّيه بأن يؤهل أي يدعو له بذلك، وهو أنسب، وكان أولى لو مثل الكاتب لدقة المعنى وصواب المصدر بقوله:

أشارت بمدراها وقالت لأختها ... أهذا المغيريُّ الذي كان يُذكر[3]

لئن كان إياهُ لقد حال بعدنا ... عن العهد والإنسان قد يتغيرُ

قال أبو الحارث جُمَّيز: امرأته طالق أن كانت أشارت إليه بمدراها إلا لتفقأ بها عينه، هلَّا أشارت إليه بنقانق مُطرف بالخردل، أو سَنْبُوسَجَة[1] مغموسة في الخلِّ، أو

---

(١) الطلل المحول والمحيل: هو الذي أتت عليه أحوال فطمست معالمه، وأخفت رسومه.

(٢) البوباة: الفلاة، واسم لصحراء بأرض تهامة.

(٣) المدري والمدراة: حديدة يحك بها الرأس.

أو لَوْزينجة[٢] شرقة بالدهن، فإن ذلك أنفع له، وأطيب لنفسه، وأدل على مودة صاحبته!

ونحن بالرغم من نقد هذا الأكول الشَّره، نرى ابن أبي ربيعة أبصر بمواقع الكلم: فإنه هنا لا يتحدث عن فتوَّته وشبابه، حتى يصف هدايا النساء له، وإقبالهن عليه؛ وإنما يذكر ما نالت من حسنه الأيام، وهدَّت من قواه الليالي، ألا ترونه يقول بعد ذلك:

فقالت نعم لا شكَّ غيَّر لونهُ ... سُرى الليل يُحيي نصَّه والتهجُّرُ[٣]

رَأتْ رجلًا أما إذا الشمس عارضت ... فيضحى وأما بالعشي فيخصرُ

قليلًا على ظهر المطية ظلهُ ... سوى ما نفي عنه الرداء المحبَّرُ

أخا سفر جوَّاب أرضٍ تقاذفت ... به فلواتٌ فهو أشعث أغبر

وهذا ولا شك أدق معنى وأصوب مصدرًا، مما ذكره صاحبنا من قبل في بيان رأيه، وتأييد مذهبه.

ثم مثل لصدقه الصفاء بقوله:

كل وصلٍ أمسي لديك لأنثى ... غيرها وصلها إليها أداءُ

كل أنثى وإن دنت لوصالٍ ... أو نأتْ فهي للرباب الفداء

وعندي أن هذا الشعر يدل على الكذب أكثر مما ينمُّ على الصدق، وما قيمة الصدق في حبه، والحب في قلبه، وهو يعرف غيرها ويصل سواها؟ ولو أنه نظر نظرة عميقة في شعر ابن أبي ربيعة لاهتدى إلى المثال الواضح والشاهد البين في الدلالة على

---

(١) السنبوسج: ما يحشى بقطع اللحم والجوز، ونحوه من الرقاق المعجون بالسمن أو الشيرج.

(٢) اللوزينج: نوع من الحلواء يشبه القطائف يؤدم بالجوز.

(٣) نص السري: إسراعه -والتهجر: السير في الهاجرة؛ وهي شدة الحر.

صدقه في الحب، وثباته في الغرام. وإليكم أحسن ما قال ابن أبي ربيعة في هذا المعنى، وقد وقف في بعض المناسك، فأقبل النساء جماعات جماعات كأسراب الحمائم، وكنَّ بالحج عابثات، وفي النسك لاعبات:

من اللاء لم يحججن يبغين حسبةً ... ولكن ليقتلن البريء المغفلا

فأخذ الرجال يرشقونهن بالنظرات، ويصلونهن بالأماني: فيطيعون الهوى ويعصون الله، ويجيبون داعي الحسن ويعقون داعي النسك. كل ذلك وابن أبي ربيعة عفيف الطرف والقلب، لا خشيةً من الله، أو إجلالًا للمنسك، ولكن طاعةً للهوى، ونزولًا عند حكم الصبابة؛ احتفاظًا بود من يهوى، ورعيًا لعهد من يحب، وفي ذلك يقول:

يقولون أني لستُ أصدُقُك الهوى ... وأني لا أرعاكِ حين أغيبُ
فما بالُ طرفي عفَّ عما تساقطتْ ... لهُ أعينٌ من مَعْشَرٍ وقلوبُ
عشيةً لا يستنكف القوم أن يروا ... سفاه امرئ ممن يقال لبيبُ
ولا فتنةً من ناسكٍ أومضت لهُ ... بعين الصبا كسلى القيام لعوب[1]
تروَّحَ يرجو أن تُحطَّ ذنوبهُ ... فآب وقد زيدتْ عليه ذنوبُ
وما النسك أسلاني ولكنَّ للهوى ... على العين مني والفؤاد رقيبُ[2]

ومثل لحسن عزائه بقوله:

أألحقَّ إن دار الرباب تباعدتْ ... أو انبتَّ حبلٌ أن قلبك طائر؟

---

(١) أومضت له: سارقته النظر.

(٢) يلاحظ القارئ رفع اسم «لكن» وقد ظن بعضهم أن هذا تحريف، غير أنه يجب أن نقرر أن مثل هذه المخالفة لقواعد العربية تكثر في الشعر الذي سبق وضع القواعد والحرص على مراعاتها، ولولا ضيق المقام لذكرنا شواهد ذلك من الشعر القديم ومن القرآن.

أفق قد أفاق العاشقون وفارقوا الـ ـهوى واستمرت بالرجال المرائر[١]
زع النفس واستبق الحياء فإنما تُباعد أو تُدني الرباب المقادير[٢]
أمِتْ حبها واجعل قديم وصالها وعِشْرتها كمثل من لا تعاشر
وهبها كشيءٍ لم يكن أو كنازحٍ به الدارُ أو من غيَّبته المقابر
وكالناس عُلِّقت الرباب فلا تكن أحاديث من يبدو ومن هو حاضر[٣]

وليس في هذا الشعر شيء من حسن العزاء؛ إنما هو تناسٍ لمن يهوى، وتغاضٍ عمَّن يحب، فكيف يُحسب من الحسنات أو يعدُّ من المبتدعات؟

ولعل خيرًا منه في معناه، وأدل منه على الصبابة، قول شبيب بن البرصاء:

ألم تر أن الحيَّ فرق بينهم نوًى يوم صحراء الغَميم لجوج[٤]
نوى شطتهم عن نوانا وهيجت لنا حزنًا أن الخطوب تَهيج[٥]
فلم تذرف العينان حتى تحملت مع الصبح أحفاضٌ لهم وحدوج[٦]
وحتى رأيت الحيَّ تُذرى عِراصَهم يمانيةٌ تذري الرَّغام دروج[٧]

(١) استمرت بهم المرائر: قويت عزائمهم فأقلعوا عن غوايتهم.
(٢) زع النفس: أزجرها عن الهوى.
(٣) من يبدو ومن هو حاضر: يريد من يقيم في البدو والحضر.
(٤) الغميم كأمير واد بين الحرمين على مرحلتين من مكة.
(٥) شطتهم: أبعدتهم، والنوى الثانية هي القرب.
(٦) الأحفاض جمع حفض بالتحريك، وهو متاع البيت إذا هيئ للحمل والبعير الذي يحمله -والحدوج جمع حدج -بالكسر- وهو الحمل ومركب للنساء كالمحفة.
(٧) العراص جمع عرصة بفتح العين: وهي البقعة الواسعة بين الدور ليس فيها بناء -والرغام: تراب لين أو رمل مختلط بتراب.

فأصبح مسرورٌ ببينك معجبٌ وباكٍ له عند الديار نشيج(١)
فإن تك هند جنة حيل دونها فقد يعرف اليأسَ الفتى فيعيج(٢)

وألاحظ أيضًا أيها السادة أنه كرر بعض الصفات؛ فإنه قال: إن اعتذر أبرأ، وأنشد في ذلك قوله:

فالتقينا فرحَّبت حين سلمـ ـت وكفت دمعًا من العين ثارا
ثم قالت عند العتاب رأينا منك عنا تجلُّدًا وازورارا
قلت كلا لاهِ ابن عمك بل خفـ ـنا أمورًا كنا بها أغمارا
فجعلنا الصدود لما خشينا قالة للناس للهوى أستارا

ثم قال: وطلاوة الاعتذار، وأنشد فيها قوله:

أرسلت إذ رأت بعاديَ ألا يقبلنْ بي محرِّشًا إن أتاهُ
دون أن يسمع المقالة منا وليطعني فإن عندي رضاهُ
لا تطع بي فدتك نفسي عدوًّا لحديثٍ على هواه افتراه
لا تطع بي من لو رآني وإيا ك أسيرَى ضرورة ما عناه

ولا فرق بين هذين الشعرين إلا أنه في أولها يحدث عن نفسه، وفي ثانيها عن حبيبته.

وكذلك ألاحظ أن قوله: (وقلة الانتقال، وإثبات الحجة، إن قدح أورى، وإن اعتذر أبرا. وإن تشكَّى أشجى) كل هذه الصفات تؤدي إلى غرض واحد: هو

---

(١) النشيج: هو الغصص بالبكاء وتردده بالصدر في غير انتخاب.

(٢) يعيج: يعود إلى رشده.

استيفاء الموضوع، وإقناع المخاطب، فإنك تنظر إلى ما أنشده في قلة الانتقال، فلا تجد غير ما أنشده في إثبات الحجة: فكلاهما في محاورة اللائم ومراجعة العاذل.

على أن إسباغَ الكلام، وتتميم الموضوع، يُعدَّانِ من الميزات الأولية في الشعر العربي، فقد يتكلم الشاعر عن عدة أشياء في قصيدة واحدة، وهو مع ذلك يوفي كل موضوع حقه، ويعطي كل وصف قسطه. وهذا سويد بن أبي كاهل اليشكري، جعل قصيدته العينية صحيفة لتاريخه، وشرحًا لأغراضه، حتى ليحسب القارئ أن ليس في استطاعة شاعر غيره، أن يبسط القول في مسألة واحدة بسطه فيها، ولا أن يبلغ غرضه من شيء ما بلغ منه. فلو أن شاعرًا شاء أن يصف عدوًّا حسن الظاهر سيئ الباطن، لما زاد على قوله:

رُب من أنضجتُ غيظًا قلبه ... قد تمنَّى لِيَ شرًّا لم يُطَع
ويراني كالشَّجا في حلقهِ ... عَسِرًا مخرجه ما يُنتزع
مُزْبِدٌ يخطِر ما لم يرني ... فإذا أسمعته صوتي انقمع[(١)]
قد كفاني الله ما في نفسه ... ومتى ما يكفِ شيئًا لا يَضِع
بئسما يجمعُ أن يغتابني ... مَطْعَمٌ وَخمٌ وداءٌ يُدَّرع[(٢)]
لم يَضِرني غير أن يحسدني ... فهو يَزْقو مثل ما يزقو الضُّوَع[(٣)]
مُسْتَسِرُّ الشنء لو يفقدني ... لبدا منه ذُبابٌ فنبَع[(٤)]

---

(١) مزبد يخطر: تشبيه بالفحل الهائج، يقال: أزبد الفحل إذا هدر، وخطر بذنبه: ضرب به يمينًا وشمالًا.

(٢) طعام وخم ووخيم: غير موافق -وأدراع الداء كناية عن الابتلاء به.

(٣) يزقو: يصيح -والضوع كصرد وعنب ذكر البوم، أو طائر أسود كالغراب.

(٤) الشنء: البغض -والذباب في هذا البيت الشر.

صـــاحب المِئـــرة لا يـــسأمها يُوقـــد النـــار إذا الـــشرُّ سَـــطَعَ[١]
ذرع الـــــداء ولم يُـــــدرك بـــــهِ تِـــرةً فاتـــت ولا وَهْيًـــا رقـــع[٢]

وهذا من النعت الشامل، والوصف السابغ، وهو جزءٌ من قصيدة كثرت أغراضها، وتشعَّبت فنونها. ولو كان بي أيها السادة أن أشرح لكم طريقة العرب في الوصف وسبيلهم في البيان، لكان لي مضطرب واسع، وميدان فسيح؛ ولكنني أريد الآن أن أفهمكم فقط: أن ابن أبي ربيعة ليس أول شاعر بسط القول، وهلهل الشعر، فليست أبياته التي يقول فيها:

خلـــيليَّ بعـــضَ اللـــوم لا تـــرحلا بـــه رفـــيقكما حتـــى تقـــولا عـــلى علـــم[٣]
خلـــيليَّ مـــن يَكْلَـــف بـــآخر كالـــذي كلفـــت بـــه يَـــدْمُلْ فـــؤادًا عـــلى سُـــقم[٤]
خلـــيليَّ مـــا كانـــت تـــصاب مقـــاتلي ولا غـــرَّني حتـــى وقعـــت عـــلى نُعـــم[٥]
خلـــيليَّ حتـــى لُـــفَّ حـــبلي بخـــادع مُـــوَقي إذا يُرمـــى صَـــيُودٍ إذا يَرمـــي[٦]،
خلـــيليَّ لـــو يُرقـــى خليـــلٌ مـــن الهـــوى رُقيـــتُ بـــما يـــدني النَّـــوار مـــن العُـــصْم[٧]
خلـــيليَّ إن باعـــدتُ لانـــت وإن أَلِـــنِ تَباعـــد فلـــم أَنْبُـــل بحـــرب ولا ســـلم[٨]

(١) المئرة: هي العداوة والنميمة.
(٢) الترة: الثأر.
(٣) لا ترحلا رفيقكما باللوم: لا تؤذياه بإسماعه إياه.
(٤) يدمل فؤاده على السقم: يطويه عليه.
(٥) إشارة إلى أنه فتن بها لأول نظرة.
(٦) لف الحبل هنا كناية عن الوقوع في الشرك.
(٧) النوار: النافرة من الظباء -والعصم جمع أعصم وعصماء، وهي التي في أذرعها بياض.
(٨) لم أنبل: لم أصب أو لم أحسن الرمي.

ليست هذه الأبيات -وهي التي أنشدها ذلكم المؤلف في إثبات الحجة- بشيء في جانب ما قالته جليلة بنت مُرة، وقد اعتدى أخوها جساس على زوجها كليب فقتله، فمنعتها أخت كليب من الدخول في مأتمه، فأخذت تبين لها بشائق القول، وساحر البيان، مصيبتها في زوجها، وهمّها على أخيها، وأنها أولى منها بالحزن، وأجدر بالشجى، وذلك قولها:

يا ابنة الأقوام إن لمستِ فلا ... تعجلي باللوم حتى تسألي
فإذا أنتِ تبيَّنت التي ... عندها اللوم فلُومي واعذلي
إن تكن أخت امرئٍ لِيمَتْ على ... شفقٍ منها عليه فافعلي
فعلُ جسَّاسٍ على وجدي بهِ ... قاصمٌ ظهري ومُدْن أجلي
لو بعينٍ غير عيني انفقأت ... عيني اليمنى إذًا لم أحفلِ
جلَّ عندي فعل جَساس فيا ... حَسْرتي عما انجلت أو تنجلي
يا قتيلًا خرَّب الدهر بهِ ... سقف بيتيَّ جميعًا من عَل
هدم البيت الذي استحدثتهُ ... وبدا في هدم بيتي الأول
ورماني قتله من كَثَبٍ ... رَمْيةَ المُصمى به المستأصِلِ[1]
يا نسائي دونكن اليوم قد ... خصَّني الدهر بأمرٍ مُعضِلِ
خصَّني قتل كليب بلظى ... من ورائي ولظى مستقبلي
ليس من يبكي ليوميه كمن ... إنما يبكي ليوم بَجَلِ[2]
دَرَكُ الثائر شافيه وفي ... دَرَك الثائر قتلٌ مثكلي

(١) من كثب: من قرب -والمصمى هو من قولهم: أصمى الصيد إذا رماه فقتله مكانه -والمستأصل من قولهم: استأصل الله شأفتهم، إذا قطع دابرهم.
(٢) بجل بمعنى فقط.

إنني قاتلةٌ مقتولةٌ ولعل الله أن يرتاح لي[١]

وذلك نفسه هو القصد للحاجة: الذي جعلوه من مبتدعات ابن أبي ربيعة ممثِّلين بقوله:

أيها المنكح الثريا سُهيلًا عَمْرَك الله كيف يلتقيان

هي شاميةٌ إذا ما استقلت وسهيلٌ إذا استقلَّ يمان

وألاحظ أيضًا أيها السادة أن أكثر تلك الصفات من الأمور العامة: التي لا تحدِّد معنى ولا ترسم طريقة. فما الذي أراده بسهولة الشعر، وشدة الأسر؟ وما الذي قصده من حسن الوصف؟ وما الذي عناه بفتح الغزل؟ ولقد تأملت الأمثلة التي ذكرها لتلك الصفات، فإذا هي أكثر منها غموضًا: فقد مثل لحسن الوصف بقوله:

لها من الريم عيناه ولفتتهُ وغرة السابق المختال إذا صهلا

فما وجه الحسن هنا؟ إن كان في إحراز الصفات المختلفة للموصوفات المختلفة، فليس بالشيء الجديد. فلقد قال امرؤ القيس في وصف حصانه:

له أيطلا ظبيٍ وساقا نعامةٍ وإرخاء سِرْحانٍ وتقريب تَتْفُل[٢]

وإن كان لروعته وبهائه، فما هو أيضًا بالمبتدع، وخير منه قول الشنفري:

فدقت وجلت واسبكرَّتْ وأكمِلَتْ فلو جُنَّ إنسانٌ من الحسن جُنَّتِ[٣]

ومثل لفتح الغزل بقوله:

---

(١) ارتاح له الله: أنقذه من البلية.

(٢) الأيطل: الخاصرة -والسرحان: الذئب -والتتفل: ولد الثعلب.

(٣) دقت وجلت: يريد أن جسمها دقيق في الموطن الذي تستملح فيه الدقة، وجليل في الموضع الذي تستطاب فيه الضخامة -واسبكرت: طابت واعتدلت.

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى فكن حجرًا من يابس الصخر جَلْمدا

وهو معنى مشهور، لا يصح أن يجعل دليلًا على نبوغ شاعر، على أنه ينسب للأحوص. وكذلك رأينا فيما ذكره: من تسهيله وتقويله، واختصاره الخبر، ودقة معناه وصواب مصدره، إلى غير ذلك من الأوصاف العامة والنعوت التي لم تحدد، فلم يبق إلا أن ننظر في الصفات التي يظن أنه ابتدع ما أفصحت عنه، وابتكر ما دلت عليه.

وإني قبل ذلك ألفت نظركم إلى أن تلك الصفات يرجع بعضها إلى المعنى، وبعضها إلى اللفظ، وشيء منها إلى الأسلوب. وأريد بالمعنى هنا الفكرة الأساسية، التي يعد الشاعر مُبدعًا لها إذا سبق بها، كما يقولون أول من طرد الخيال طرفة بن العبد في قوله:

فقل لخيال الحنظلية ينقلبْ إليها فإني واصلٌ حبل من وصلْ

وأريد باللفظ الكلمة المستعملة أول مرة في التعبير عن معنى معروف، كما يقولون: أول من قيد الأوابد امرؤ القيس في قوله:

وقد اغتدى والطير في وكناتها بمنجردٍ قيد الأوابد هيكل[1]

يريدون أنه أول من عبر عن السرعة بهذا التعبير.

فأما الأسلوب -وهو الطريقة المثلى في الأداء- فإني لا أريد مناقشة المؤلف فيما يتعلق به، فقد كان للعرب قبل ابن أبي ربيعة بأجيال أسلوب سامٍ بديع، ما زال الناس يقتفون فيه أثرهم، ويترسَّمون خُطاهم. على أن أكثر ما يتعلق بذلك من تلك

(١) الوكنات جمع وكنة وهي عش الطائر - والمنجرد القصير الشعر - والأوابد: الوحوش - والهيكل: الفرس الطويل.

الصفات منتقد مزيَّف. وقد أشرنا إلى شيء منه في الملاحظات السالفة، فليتأمله الراغب في الفهم، والجانح للبيان.

فمن الصفات المعنوية عِفة المقال التي مثل لها بقوله:

طال ليلي واعتادني اليوم سُقْمُ ... وأصابت مقاتلَ القلب نُعْمُ

حُرَّةُ الوجه والشمائل والجو ... هر تكليمُها لمن نال غُنْم

وحديث بمثله تُنزلُ العُصْـ ... ـم رخيم يشوب ذلك حلم

هكذا وصفُ ما بداليَ منها ... ليس لي بالذي تغيَّب عِلْمُ

إن تجودي أو تبخلي فبحمد ... لستُ يا نعمُ فيهما من يذمُّ

وكان ذلك من خير ما يوصف به الشعر في الحب، وتنعت به أحاديث الصبابة؛ لولا أننا لا نعده حسنة للشاعر ولا منقبة للمحب، ما لم يكن من خواصه، ومما لا يعدل عنه، فكيف وابن أبي ربيعة متهتك في شعره، متطرف في نسيبه؟

على أن هذا الشعر وإن دل على عفة المحب، فإنه لا يدل على إغراب المحبوب في الصيانة، وإمعانه في التمنع، وخيرٌ منه قول الشنفرى في ظبية تسكن إلى أمها، وتنفر من محبها:

لقد أعجبتني لا سقوطًا قناعها ... إذا ما مشت ولا بذات تلفتِ

تحلُّ بمنجاة من اللوم بيتها ... إذا ما بيوتٌ بالملامة حُلت

كأن لها في الأرض نسيًا تقصهُ ... على أمها وإن تكلمك تبلت[1]

---

(١) النسي -بالكسر ويفتح- ما نسي وما تلقيه المرأة من خرق اعتلالها. وتبلت وتنبلت تنقطع. والمعنى أنها تسكن إلى أمها فتطيل الكلام، فإذا كلمها رجل غلبها الحياء فسكتت.

وما زال العرب يفتخرون بالعفة، ويتمدحون بالصيانة، فكيف يكون ابن أبي ربيعة مبتدعًا للعفة في المقال، وقد عرفت من قبله في الفعال؟

ومما ابتدعه أيضًا في زعمهم عطف المساءة على العذال في قوله:

لا تلمني عتيق حسبي الذي بي ... إن بي يا عتيق ما قد كفاني
لا تلمني وأنت زينتها لي ... أنت مِثلُ الشيطان للإنسان

وهو خطأٌ في الفهم، فإن هذا معنى أوجدته حادثة خاصة، وليس كل عاذل بقواد، حتى يكون المعنى شاملًا لكل لائم وعاذرًا لكل ملوم، وقد وُجد في كتاب الله من قبل، فلا سبيل لعده من المبتكرات، ولا لجعل صاحبه من المبدعين.

ثم قال: ومن إقدامه عن خبرة ولم يعتذر بغرة قوله:

صرمت وواصلت حتى عرفـ ... ـتُ أين المصادر والموردُ
وجرَّبت من ذاك حتى عرفـ ... ـت ما أتوقى وما أعمد

على أن وصل الغانيات، والحظوة لديهن، قد لا يحتاج إلى قسط أوفر من الدهاء، ونصيب أكبر من السياسة، حتى يفخر الشاعر بالفوز فيه والظفر به، إنما يكبر المرء في عين النساء بفحولته، وبشبابه النضير، وغصنه الرطيب، وما منحته الطبيعة من ديباجة مشرقة ومحيا وسيم. فأما اللوام والعذال والوشاة، فهم أهون الناس عليه، وأصغرهم لديه، إن نال من حبه الكرامة، وحل في قلبه الشفيق.

ولعل البهاء زهير قلَّده في هذا المعنى: إذ جعل القواد المختثين أشباهًا لسفراء الدول حين يقول:

فيا رسولي إلى من لا أبوح بهِ ... إن المهمات فيها يُعرف الرجلُ

والمعنى أصله للنابغة في مدح بني غسان، وقد وضعه في موضعه وأقره في نصابه، وذلك قوله[1]:

ولا يحسبون الخير لا شر بعدهُ ... ولا يحسبون الشرَّ ضربة لا زبِ

إذ كانوا لا يغفلون عن حراسة الخير، ولا يفترون في مدافعه الشر:

ثم قال: ومن تحذيره قوله:

لقد أرسلت جاريتي ... وقلت لها خذي حذركْ
وقولي في ملاطفةٍ ... لزينب نَوِّلي عمرك
فإن داويت ذا سَقَمٍ ... فأخزى الله من كفَركْ
فهزَّت رأسها عجبًا ... وقالت من بذا أمرك
أهذا سحرك النسوا ... ن قد خبَّرني خبرك
وقلن إذا قضى وطرًا ... وأدرك حاجة هجركْ

ولست أرى في هذا الشعر ما ينبئ عن ابتداع، أو يدل على اختراع، فإن تحذير الرسول من الأمور الفطرية التي تخطر ببال أحدث الناس عهدًا بالحب، وأقلهم علمًا بما يجني الوشاة.

على أن ذلك قد يكون من عيوب تلك القوادة التي كان ينبغي أن لا تحتاج إلى تحذير، فما يصح أن تكون جارية ابن أبي ربيعة غرة بلهاء، يدرك الناس ما تسعى له، فيعرفون من تمشي إليه، أو تخطئ فهم ما أرسلت به، فتخفق فيما سعت له.

فأين كانت، لا عفا الله عنها، تلك العجوز الشمطاء، والداهية الشعواء، التي كان يرسلها ابن أبي ربيعة إلى الظباء النوافر، والحسان الغرائر، فتسمعهنَّ من حلو

(١) الضمير عائد على النابغة.

obeikandi.com

الحديث ومُرِّه، وصعب الكلام وسهله، ما يجعلهن إلى الفسق أميل، ومن الفحش أقرب؛ فيصبحن خليعات فاجرات، بعد أن كنَّ عفيفات طاهرات؟!

أين كانت -لا كانت- تلك التي يقول فيها.

وأتتها طَبَّةٌ عالمةٌ تمزج الجِدَّ مرارًا باللعب[(١)]
تُغلظ القول إذا لانت لها وتُراخي عند سَورات الغضب
لم تزل تصرفها عن رأيها وتأنّاها برفق وأدب[(٢)]

تلك التي ودَّ الناس لو أتاحت لهم الأقدار خليفةً في عقلها، أو أميرًا في رأيها، والتي طلب الوليد من حمَّاد أن يسعفه بمثلها، ويدركه بشبهها، حتى تعطف سلمى عليه، وتردها إليه.

ذلك ما أجاد ابن أبي ربيعة في وصف الرسل. فأما (التحذير) الذي عناه المؤلف، فهو ضرب من الخطأ، أو نوع من الفضول.

ثم قال: ومن قناعته بالرجاء من الوفاء قوله:

فعِدي نائلًا وإن لم تُنيلي أنه ينفع المحبَّ الرجاءُ

وقد علمت مما أسلفناه أن ابن أبي ربيعة لم يكن ممن يرضى في حبه باليسير من الوصل، والقليل من القرب، حتى تعدَّ من ميزاته القناعة، ومن خصائصه العفاف.

وأين هذا البيت في حسنه من قول جميل:

وإني لَراضٍ من بثينةَ بالذي لو أبصره الواشي لقرَّت بلابلُه
بلا وبأن لا أستطيع وبالمنى وبالأمل المرجوِّ قد خاب آمله

---

(١) طبة: حاذقة رفيقة.

(٢) تأناها بحذف إحدى تاءيه: تتمهل عليها.

وبـــالنظرة العَجْـــلى وبـــالحول تنقـــضي أواخـــرُهُ لا نلتقـــي وأوائلـــه

ولا تحسبوا أيها السادة أن هناك فرقًا بين الشعرين في المعنى حتى تستبعدوا المقارنة. فإن المؤلف -فيما أظن- لم يشأ إلا التنويه بقناعة الشاعر، والتغني بعفافه، بدليل قوله بعد ذلك: هذا أحسن من قول كثير:

ولـــست بـــراضٍ مـــن خليـــل بنائـــلٍ قليـــل ولا أرضى لـــه بقليـــل

وقد شاء أن يخطئ في الآخرة والأولى: فإن ابن أبي ربيعة يتكلم عن محبوبه، وكثير يتكلم عن خليله، وقد يرضي المرء بظلم حبيبه ولا يرضى بجور صديقه، فقد يصدف الحبيب دلالًا، ويعرض الصديق ملالًا، والصبُّ عن حبه صَفُوح، وربما نُوقش الصديق.

فأما ما أسدل ابن أبي ربيعة من الحُلل الجديدة الفاخرة، على المعاني القديمة الباهرة، وما تندَّر به من التراكيب الطريفة المخترعة، والتعابير الحديث المبتدعة، فإنا نرحم الأدب من أن يُعجب بها كاتب فيزين بها نثره، أو يخدع بها شاعر فيجمِّل بها شعره؛ إذ كانت في جملتها من الاستعارات الفاسدة، والمجازات المردودة، مما ينبو عنه الطبع، ويمجه الذوق السليم. فما حسن إنكاح النوم في قوله:

حتـــى إذا مـــا الليـــلُ جـــنَّ ظلامـــهُ ونظـــرت غفلـــة كاشـــح أن يعقـــلا

واســـتنكح النـــومُ الـــذين نخـــافهم وســـقى الكـــرى بـــوابهم فاســـتثقِلا

خرجـــت تـــأطَّر في الثيـــاب كأنهـــا أيـــمٌ يـــسيب عـــلى كثيـــب أهـــيلا[1]

(١) تأطر أصله تتأطر، حذفت إحدى تاءيه، والتأطر: التثني -والأيم: الأفعى. ويسيب: يمشي - والكثيب الأهيل: الرمل المنهال.

وعلى أي وجه تجري هذه الاستعارة، ومن أي سبيل يجوز هذا المجاز؟ إنْ هذا إلا اختلاق.

ولست أدري لِمَ لم يفتن الكاتب أيضًا بما أبدع ابن أبي ربيعة: من تشبيه الحسناء وهي تتثنى، بالحية وهي تتلوى، فهو أيضًا تعبير مخترع، وتشبيه مبتدع، لا يقل عن إنكاح النوم في السماجة، ولا ينقص في الفضول.

وإنهم ليعجبون أيضًا بقوله:

في خلاءٍ من الأنيس وأمنٍ ... فشفينا غليلنا واشتفينا

وضربنا الحديث ظهرًا لبطن ... وأتينا من أمرنا ما اشتهينا

فمكثنا بذاك عَشْر ليالٍ ... فقضينا ديوننا واقتضينا

وذلك أنهم يزعمون أنه أول من ضرب الحديث ظهرًا لبطن، من غير أن يبينوا ما يُراد بذلك البدع الجديد!

ويستجيدون أيضًا قوله:

حبكم يا آل ليلى قاتلي ... ظهر الحبُّ بجسمي وبطنْ

ليس حبٌّ فوق ما أحببتكم ... غير أن أقتل نفسي أو أُجنْ

وهو من الخطأ في التعبير، فإن الحب حين تبدو علائمه من الأرق والسهاد، والنحول والذبول، لا يقال عنه بطن وظهر، إنما يقال: ظهر منه ما كان خفيًّا، وبدا ما كان مستورًا. وقد يستبعدون أن يكون الأسى الظاهر، تمثالًا للجوى الباطن، كأنْ ما يبدو بالجسم من شُحوب وبالوجه من لُغوب، إنما هو شَرَرٌ تطاير من لهيب القلب، وسعير الفؤاد.

وإن تعجب فعجبٌ قوله:

لـــيس حـــب فـــوق مـــا أحببـــتكم غـــير أن أقتـــل نفـــسي أو أُجـــن

كأن لم يقتل الحب من أحد، ولم يُصرع به إنسان!

وإني أيها السادة -على ما أغربت في نقد ذلكم المؤلف- أرى من الإنصاف أن أعزز رأيه في كلمة اختارها في طلاوة الاعتذار، وأخرى في تحبير ماء الشباب، وثالثة في صدق الصفاء.

فأما الأولى فهي قوله:

عـاود القلـبَ بعـضُ مـا قـد شـجاهُ مـن حبيـب أمـسى هوانـا هـواهُ

أرســـلت إذ رأت بعـــاديَ ألا يقـــبلنْ بي محرِّشـــا إن أتـــاه[1]

دون أن يـــسمع المقالـــة منـــا وليطعنـــي فـــإن عنـــدي رضـــاه

لا تطـــع بي فـــدتك نفـــسي عـــدوًّا لحـــديثٍ عـــلى هـــواه افـــتراه

لا تطـــع بي مـــن لـــو رآني وإيـــا ك أســـيرى ضرورة مـــا عَنَـــاه

مـــا ضِراري نفـــسي بهجـــران مـــن ليـــ ـــس مـــسيئًا ولا بعيـــدًا ثـــراه[2]

واجتنـــابي بيـــت الحبيـــب ومـــا الخـــ ـــلد بأشـــهى إليَّ مـــن أن أراه

والحق أقول: إن إعجابي بهذه الأبيات، ليس لما فيها من طلاوة الاعتذار -كما ذكر ذلك المؤلف- بل لما فيها من الجرأة في الخروج على الوشاة. ومن ذا الذي يقرأ قوله:

لا تطـــع بي مـــن لـــو رآني وإيـــا ك أســـيري ضرورة مـــا عنـــاه

ثم لا يعطي العدو أذنًا غير واعية، وفؤادًا غير أوَّاب.

---

(١) المحرش: المفسد.

(٢) الثرى: الخير.

أم من ذا الذي يسمع قوله:

مـــا ضراري نفـــسي بهجـــران مـــن ليــــ ... ـــس مـــسيئًا ولا بعيـــدًا ثـــراه

واجتنـــابي بيـــت الحبيـــب ومـــا الخـــ ... ـــلد بأشـــهى إليَّ مـــن أن أراه

ثم لا يطير إلى حبيبه، لينعم بجماله، ويظفر بوصاله؟

وأما الكلمة الثانية فهي قوله:

أبرزوهـــا مثـــل المهـــاة تهـــادَى ... بـــين خَمْـــس كواعـــب أتـــراب

وهـــي مكنونـــة تحـــيَّر منهـــا ... في أديـــم الخـــدين مـــاء الـــشباب

ثـــم قـــالوا تحبهـــا؟ قلـــت بهـــرا ... عـــدد الرمـــل والحـــصا والـــتراب

ووجه الحسن في تحيير ماء الشباب، أنك تنظر إلى الخدود المورَّدة فتراها كالشَّفق تتنقل من تحته الشمس، أو كالمشكاة يتموَّج في قلبها المصباح.

في سبيل الحب تلك النظرة! يوم رأيته وقد أبلَّ من حُمى أَضْرَعتْه، فرأيت ماء الشباب يدب في تلك الخدود وهي صفراء كالورس، فيعيدها حمراء كالورد، وإذا بالأنس يتمشى في فؤادي لشفائه، تمشي البرء في أعضائه(١).

وأما الثالثة فهي قوله:

أحـــب لحبـــك مـــن لم يكـــن ... صـــفيًا لنفـــسي ولا صـــاحبا

وأبـــذل مـــالي لمرضـــاتكم ... وأُعتِـــب مـــن جـــاءكم عاتبـــا

وأرغـــب عـــن ودِّ مـــن لم أكـــن ... إلى ودهِ قـــبلكم راغبـــا

ولـــو ســـلك النـــاس في جانـــب ... مـــن الأرض واعتزلـــت جانبـــا

(١) تتصل هذه الفقرة إلى هذا الحديث بسبب ضعيف، وذكرها هنا ضلال مبين.

obeikandi.com

ليمَّمْـــــــتُ طيتهـــــــا إننـــــــي أرى قربهـــــا العجـــــب العاجبـــــا[1]

وجملة القول: أن ما نسب إلى ابن أبي ربيعة من المعاني المبتكرة والألفاظ المبتدعة، على ما فيه من وَهَن، وما به من دَخَل، لا يُفصح عن منهج في الشعر غير مألوف، أو سبيل غير معروف.

فما طريقه الجديد، أو منهجه الحديث؟

(١) يممت طيتها: قصدت ناحيتها.

obeikandl.com